عن أحمد بلال بحار

المعلم الذي أمسك بيدي لعبور النهر

حسن المطروشي

مكالمة من لندن

كان يوما حزينا في مطلع شهر يوليو عام ١٩٨٣م، فيما كنت أنا وزميل دراستي في بريطانيا نجمع حقائبنا لمغادرة منزل الأسرة التي أقمنا معها نصف عام بالتمام، أثناء دراستنا للغة الإنجليزية، في مدرسة (بيترز سكول أوف إنجلش)، بمنقطة إيست ساسكس، بهدف العودة إلى الوطن، لقضاء إجازة الصيف ثم الرجوع مجددا إلى مكان آخر في بريطانيا لمواصلة الدراسة.

في ذلك اليوم تُبلِغُني ربّةُ المنزل السيدة كاثكارد بأن شخصا من عمان يود التحدث معي، وهو يوجد في لندن. وما إن رفعت سماعة الهاتف حتى أتاني صوت ذلك الرجل الودود الذي يحمل دفء وطني، ليخبرني بأنه آتٍ إلى المملكة المتحدة لعدة أشهر بهدف دراسة اللغة الإنجليزية، في ذات المدرسة التي أتعلم فيها، سائلا عن بعض التفاصيل بشأن الأسرة التي نقيم معها، وتعاملها مع الطلبة والغرباء، وطبيعة الحياة في المنزل، وعن المنطقة والمدرسة، وغير ذلك من الأمور التي يجهلها الغريب.

ينتهي الحوار باطمئنان الرجل إلى المكان الذي سيذهب إليه والمنزل الذي سيقيم فيه خلال فترة وجوده في المملكة المتحدة. ونغادر أنا وزميلي المنزل عائدين إلى عمان، ليحل مكاني في نفس الغرفة ذلك الرجل الذي حدثني هاتفيا من لندن، ينام على ذات السرير الذي قضيت فيه شهورا من الوحدة والغربة. لا شك أن الرجل سمع الكثير من القصص تدور عن الشاب العماني الشقي الذي كان هناك، تجتمع حوله عجائز العائلة في عطلات نهاية الأسبوع، يستمتعن بسماع حكاياته عن الطفولة والبلاد العربية، وأكاذيبه الصغيرة أحيانا، ويسعدهن النظر إلى شعره الأسود الكثيف وتأمل عينيه السوداوين.

مقابلة وظيفية ولكن!

بعد مضي أكثر من أربعة أعوام، وفي فبراير من عام ١٩٨٧م تحديدا، يحدث تحول في مسار عملي حيث انتقلت من عملي السابق، للعمل في المديرية العامة للتوجيه المعنوي والعلاقات العامة، برئاسة أركان قوات السلطان المسلحة. وعند مقابلتي لمدير التوجيه المعنوي، الذي كان حينها علي بن عبدالله الكلباني (وكان مايزال مدنيا)، أبلغني بأني سأتولى منصب مساعد ضابط التنسيق والعلاقات العامة، وطلب مني الذهاب

لمقابلة ضابط التنسيق والعلاقات، الذي كان في انتظاري في مكتبه. بدأ حديثنا عاديا كأي مقابلة وظيفية، حيث بدأنا بالتعارف، فأخبرني أن اسمه أحمد بلال بحار، وعرفني قليلا عن مهمام عملي. الرجل الذي رأيته كان شخصا مختلفا بكل المقاييس، فقد كان ودودا، تعكس ملامح وجهه الكثير من الطيبة والتواضع وسمات البشاشة، ما ينم عن قلب عامر بالمودة والحب والصفاء.

خلال المقابلة طلب مني أحمد بلال كتابة موضوع من اختياري، ليختبر مدى قدرتي على التعبير. وبعد أن أنهيت الموضوع قال لي: (أنت كاتب)، وعلى الفور طلب مني البدء جديا في القراءة، ووجهني بالبدء بقراءة ما أحب من الكتب وفي المجال الذي يستهويني ويميل له قلبي. وأشار لي إلى مكتبة ضخمة للتوجيه المعنوي، أصبحت فيما بعد المحطة الأهم في حياتي وتكويني المعرفي، نظرا لما وفرته لي من كتب الأدب والفكر والثقافة بكافة فروعها ومجالاتها.

في تلك المكتبة تأسست تجربتي وتشكل وعيي الشعري والجمالي المبكر، إذ اطلعت فيها على الكثير من كتب الشعر القديم وقرأت فيها شعراء معاصرين مثل بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وعبدالوهاب البياتي

ونازك الملائكة والجواهري وسميح القاسم ومحمد الماغوط وسعدي يوسف وأحمد عبدالمعطي حجازي ونزار قباني ومحمد الفيتوري وإيليا أبا ماضي، وغيرهم من الشعراء الذين كان لهم بالغ الأثر في تشكيل قناعاتي الجمالية وبناء وعيي الشعري. إلى جانب القراءات الأخرى في اللغة والدين والتاريخ، وهي المواضيع المحببة لدي في القراءة، وما زالت قراءاتي تتركز فيها.

بحثا عن المصباح

ولم يكتفِ أحمد بلال بتوجيهي للمكتبة، بل تعهدني بالمتابعة والتوجيه والنصح، حتى أنه لم يكن يسمح لي بوقت فراغ في المكتب حينما لا أكون مشغولا بواجب وظيفي، إذ كان يأمرني بأن أمسك كتابا وأباشر في القراءة. وكان أحيانا يأتي في المساء من بيته في بركاء إلى مقر إقامتي في ثكنتي العسكرية بمعسكر المرتفعة لأجل أن يتأكد أنني أواصل القراءة ولا أضيع وقتي دون فائدة. وكان دائما ما يسألني في الصباح عن قراءتي في المساء الفائت، حرصا منه على مشروعي القرائي، الذي سيكون زادي ورافدي الأساس في مواجهة رياح الطريق.

وقد كان لهذا الاهتمام وتلك المتابعة من قبل الأديب الكبير أثر عميق في نفسي، إذ خلق لدي حساسية مختلفة، فنشأ لدي إحساس بالغ بأهمية الأمر وضرورة استغلال الوقت وتنظيمه ووضع البرامج والخطط لتحويل الموضوع من مجرد هواية للقراء إلى مشروع حياة ومستقبل عمر بأكمله. فلم يكن مستغربا أن أقضي الليل لعدة سنوات في القراءة على إضاءة مصابيح دورات مياه الجنود، فقد كان يقتسم معي الغرفة في المعسكر شخص لا علاقة لها بالقراءة، ويريد الذهاب للنوم في حدود التاسعة مساء، ولا يتجاوز العاشرة في أحسن الأحوال، بينما كنت أريد ممارسة طقسي اليومي في القراءة إلى وقت متأخر من الليل، ولم يكن في المبنى مكان يوفر لي الإضاءة المناسبة سوى دورة المياه، التي كانت مقسمة إلى قسمين، قسم للمراحيض وآخر لتعليق ملابس غسيل الجنود، فكنت أمكث الساعات الطوال تحت تلك الإضاءة تحت حبال الغسيل، دون وجود مروحة أو تكييف للهواء!

وجهك ليس غريبا

في الأيام الأولى من لقائنا وعملنا معا، كان يطيل النظر إلي، حتى سألني يوما: «هل تعرفني أو سمعت بي سابقا؟»، فأجبته: «لا!»، ولكنه فاجأني قائلا أنه يعرفني، وهو متأكد أنه رآني قبل ذلك، وأصر قائلا: «وجهك ليس غريبا علي!». وبالرغم من أنني لم أكترث أنا بالأمر، إلا أنه أخذ ينبش في دهاليز ذاكرته ويتتبع الأحداث ويربط خيوطها المتشابكة. وفي ذات يوم دار بيني وبينه هذا الحوار الذي فجر كل مساحات الدهشة:

- هل درست في بريطانيا؟

- نعم.

- وأين؟

- قضيت الأشهر الأولى في منطقة إيست ساسكس، حيث كنت أتعلم اللغة الإنجليزية بمدرسة (بيترز سكول أوف إنجلش).

- وأين أقمت؟

- في منزل السيد والسيدة كاثدارد.

- هل تذكر الشخص العماني الذي حدثك هاتفيا من لندن في آخر أيامك بمنزل العائلة الإنجليزية؟

- نعم.

- يا عزيزي، ذلك الشخص هو أنا! نحن بالفعل لم نلتقِ، ولكني كنت أراك بشكل يومي، فقد كانت العائلة الإنجليزية تحتفظ بصورتك في برواز كبير محفوظ فوق جهاز التلفزيون في صالة الجلوس بالمنزل. نعم هكذا حفظت صورتك جيدا، وكأننا التقينا مرات عديدة.

- يا إلهي! لا أكاد أصدق هذا!

يا لها من دهشة عظيمة، ويا له من عالم صغير. من يصدق أن يجعل القدر تلك المكالمة الهاتفية الخاطفة قبل سنوات مقدمة لعلاقة روحية عميقة ستحوِّل مسار حياتي إلى وجهة لم أتوقعها أبدا. وجهة باتجاه السؤال والبحث والمعرفة والشعر والأدب. رحلة ستبدأ مع هذا اللقاء ولن تنتهي إلا بانتهاء الحياة.

بعد انضمامي للعمل مع أحمد بلال تلقيت التهنئات والتبريكات من كافة

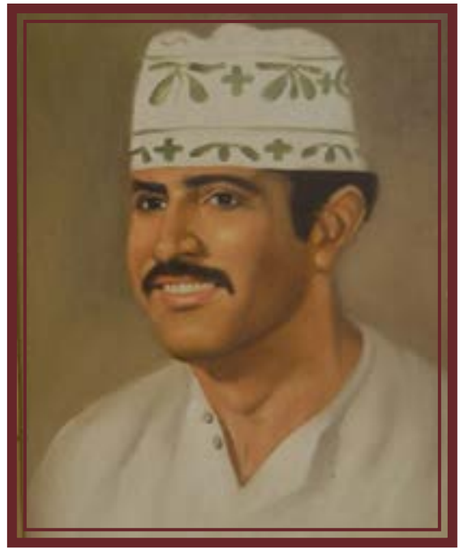

موظفي التوجيه المعنوي والعلاقات العامة، بأن حظيت بالعمل إلى جواره. فقد كان محبوبا من قبل الموظفين بكل رتبهم ومناصبهم، وكان يحظى باحترام الجميع صغيرا وكبيرا، نظرا لأخلاقه العالية وتواضعه وسيرته الحسنة بين الناس، ما جعله موضع تقدير من حوله، وأكسبه محبة الجميع.

المبدع إنسانا

كان لا يتردد في خدمة أحد أو تقديم العون لمن يقصده، سخيا يبذل ما في وسعه لمساعدة الآخرين. وكان يأتيه الناس والأفراد طالبين مساعدته ودعمه في أمورهم فلا يردهم أبدا. ومن أطرف ما أذكره في هذا السياق قصة الشاب الذي جاءه يطلب مساعدته للاتصال بالضابط (يونس)، للموافقة على منحه إجازة زواج، بهدف إتمام مراسم زواجه. فقال له أحمد بلال إن إجازة الزواج قانونية، ومن حق أي فرد الحصول عليها، فلا تحتاج إلى مساعدة. فقال الجندي إن عائلته تؤمن بحسابات النجوم والأفلاك، ويتعين أن تكون الإجازة موافقة لبعض المطالع والحسابات الفلكية لا سيما فيما يتعلق بالشمس والقمر. وقد سبق أن منح إجازة زواج مرتين، إلا أن الزواج لم يتم بسبب ذلك. وعندما كانت الحسابات موافقة أقيم حفل الزواج في غيابه، لأنه لم يحصل على الإجازة، فحاول أخوه الأكبر أن يأخذ العروس بدلا منه، ليتولى المهمة نيابة عن أخيه، ولكن أهل العروس رفضوا تسليمها إلى الشقيق الأكبر! فضحك أحمد بلال واتصل بالضابط يونس وطلب منه مساعدة الجندي الراغب في إتمام نصف دينه، وقال له مازحا لابد أن تتزوج هذه المرة، وإلا لن أساعدك ولو انطبقت السماء على الأرض وليس فقط حسابات الشمس والقمر!

كما كان رحمه الله جريئا ومحبا لوطنه متفانيا في أداء عمله. وقد شهدت معه مرحلة كتابة مجموعته القصصية الأخيرة (لا ياغريب)، التي حملت عنوان القصة التي يتحدث فيها عن بعض الممارسات السلبية والمضايقات التي كان يمارسها ضابط إنجليزي (الغريب) ضد شاب عماني يعمل معه في السلاح، ويتسم بالنباهة والوعي وقدر من الثقافة. وهذه القصة تعكس في تلك المرحلة جانبا كبيرا من ممارسات الأجانب بكل أطيافهم ضد العماني الذي بدأ ينافسهم ليتولى بنفسه شؤون بلده ويترقى في مناصبه وفق خطة التعمين التي كانت تنتهجها السلطنة، ما جعل الوافدين يشعرون بتهديد الموظف العماني الذي أخذ يشق طريقه ليتخلص من التبعية للوافد، من أجل أن يأخذ دوره الطبيعي في وطنه. وقد كان طرح مثل هذه المواضيع في الكتابات الأدبية يعد نوعا من الجرأة الشديدة وتشكل حساسية خاصة في تلك المرحلة المبكرة.

إلى جانب ذلك كان يسعى من خلال كتاباته إلى محاربة الخرافة والجهل والشعوذة والعادات الاجتماعية المتخلفة. كان لا يحب نشر أخبار الجن وقصص السحر والمغايبة، ويكره أن تلصق هذه الأخبار والحكايات بعمان، ويحاول جاهدا تكذيبها واعتبارها من الأشياء الدخيلة على المجتمع، ولا تستند إلى أي مرتكز من العقل والعلم، وهي تسيء إلى صورة المجتمع أكثر مما تخدمه، وتكرس الأفكار الخاطئة عن عمان، هذا البلد الحضاري العريق.

فاجعة الغياب

وإننا إذ نستذكر اليوم الراحل أحمد بلال بحار فإننا نستذكر تجربة رائدة في التأسيس لمسيرة السرد العماني بدأها مع نخبة من رفاقه من حملة الأقلام من أبناء عمان. يقول الناقد العراقي الدكتور ضياء خضير: «ومع أن ما كتبه أحمد بلال وعلي عبد الله الكلباني وحمد بن رشيد بن راشد ليس قريبا جدا على المستوى الزمني، إذ يزيد في مجمله عن زمننا الحالي بأكثر من ثلاثين عاما، فإنه لا يبدو مع ذلك بعيدا جدا عما وصلته التجارب السردية العمانية الأخرى، ولاسيما تلك التي بدأت في مراحل زمنية تالية مع مطلع القرن الحادي والعشرين لدى بعض القصاصين العمانيين المتميزين».

ويضيف الدكتور ضياء خضير: «لقد مثلت مجموعة المرحوم أحمد بن بلال القصصية (لا ياغريب) الصادرة عام ١٩٨٧ ومجموعة علي الكلباني (صراع مع الأمواج) الصادرة عام ١٩٨٧، ومجموعة حمد بن رشيد (زغاريد الصهيل) المكتوبة بين ١٩٨٠و١٩٩٠ ، مرحلة مهمة في تاريخ تطور القصة العمانية».

كانت آخر مرة رأيته فيها، قبل أيام من رحيله عن الدنيا، أثناء ترقيده بمستشفى قوات السلطان المسلحة، وكانت زوجته بجواره. عندما دخلت عليه في غرفته التي يرقد فيها تذكرت ذلك الصباح البعيد الذي دخلت فيه إلى مكتبه، لتبدأ بعدها تفاصيل حياة طويلة من الآمال والأحلام والذكريات والأسفار والكتب. كان يمعن التحديق في وجهي، دون أن يتحدث كثيرا. فقد كانت نظراته كفيلة باختصار كل الحكاية. نظرته ذاتها التي كانت تحدق بي في لقاءاتنا الأولى قبل أن يكشف لي أننا تعارفنا قبل أن نلتقي. حينها تداعت إلى مخيلتي الحزينة كل الأحداث واللحظات والمواقف، كمن يشاهد شريطا سينمائيا يدور إلى الوراء. الشريط ذاته ما زال ينطلق أحيانا دون سابق نية، وكأنما يدا من الغيب تديره ليعيد إلى الذاكرة طرقات السنين الخوالي.

لقد رحل أحمد بلال عن عالمنا بتاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٩٧م، بعد صراع مرير مع المرض، تاركا خلفه إرثا إبداعيا مهما، تمثل في مجاميعه الثلاث (سور المنايا)، و(وأخرجت الأرض)، و(لا ياغريب)، إلى جانب الكثير من المشاركات والنشر عبر الصحافة والملاحق الثقافية المختلفة، فاتحا بذلك أفقا واسعا للعابرين خلفه على طريق الجمال والإبداع والمغامرة.

صيف البلاد الذي لم ينته بعد!

هلال البادي

مر الصيف بحرارته المرتفعة جدا دون أن تمطر إلا قليلا فوق الجبال البعيدة، وأما مسقط والمدن المجاورة لها فكانت تحترق، يذوب فيها كل شيء، وتنصهر على شوارعها وفوق أرصفتها الحياة.

تلك الحياة التي عرفناها طيبة وجميلة ومفعمة بالتنوع والازدهار؛ ما عادت كذلك على الإطلاق، فهذا الصيف كان كئيبا جدا، إلى حدٍ يمكن أن يفكر فيه المرء ويقول: ليته كان كابوسا يمكن أن نصحو منه صباحا ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم!

إلا أنه ليس كذلك على الإطلاق

هذا الصيف الذي مضى، أحرق كل أمل في أن يكون هناك فعل ثقافي يسمى الملتقى الأدبي، الذي انطلق في صيف مماثل قبل واحد وعشرين عاما، بترف أقل بكثير مما كان عليه في سنواته الأخيرة، إذ كان يكفي أن يجتمع الشباب الذين لم يتجاوز أكبرهم في أفضل الحالات سن الثلاثين، يجتمعون ليقدموا تجاربهم وإبداعهم في الشعر والقصة والفن التشكيلي. وفي مرات يحضر المسرح والنقد عرضا . يجتمعون منذ التاسعة صباحا وإلى التاسعة ليلا في جلسات متتابعة يقفون واحدا فواحدا أمام منصة الإلقاء ورهبة الجمهور، يخطئون ويتعلمون ويضحكون ويحزنون ويفرحون وينصتون لمحكمين ما كانوا أطول تجربة منهم في السنوات الأولى، ولكنهم قبلوا أن يضعوا أنفسهم أمام مهمة تقديم خبرتهم في الكتابة والأدب والإبداع.

في تلك الجلسات «الرسمية» والجلسات المصاحبة التي يصر عليها الشباب، يجلس الجميع ليعرضوا تجربتهم الإبداعية، ليتحدثوا، ليتناقشوا في كل شيء، وليس الأدب وحده الذي يحضر، بل الحياة كلها، رياضة واقتصادا وتاريخا وحكايات خرافية ونكات مضحكة، كله يحضر في تلك اللحظات لتمتلئ الذاكرة بخبرات جديدة، وليخرج الشباب الذين يشاركون لأول مرة بتصورات جديدة في الكتابة والإبداع والحياة والعلاقات الإنسانية.

من هذا الملتقى الأدبي عرفنا أسماء باتت تضيء المشهد الإبداعي في السلطنة لسنوات: سليمان المعمري، عبد العزيز الفارسي، عليالرواحي، خميس قلم، طاهر العميري، سعيد الحاتمي، أحمد الكلباني، حمود الشكيلي، خالد المعمري، أصيلة المعمري، جمال الملا، عبد الله الكعبي، عبد الرحمن الخزيمي، بدر الشيباني، طفول الصارمي، عبد العزيز العميري، فيصل الفارسي، وقائمة طويلة من الأسماء التي يمكن ذكرها في هذا السياق.

كل هؤلاء وآخرون مروا على تجربة الملتقى الأدبي وظلوا أصدقاء أوفياء له عبر السنوات، وما كانت الجوائز هي ما يعنيهم في المقام الأول بمقدار الحضور والتعلم وتقديم تجربتهم لمن سيأتي لأول مرة.

وكل هؤلاء وآخرون لابد أنهم أصيبوا بالخيبة والحزن لمعرفتهم بأن الصيف مر دون ملتقى أدبي، حتى وإن لم يصرحوا بتلك الخيبة وذلك الحزن.

إلا أنني أستطيع القول بأن سلسلة الأحزان لن تتوقف عند عدم إقامة الملتقى الأدبي السنوي المخصص للشباب في الشعر والقصة والفن بأنواعه، بل ربما تمتد عند معرفتنا بأن فعاليات ثقافية أخرى يبدو أنها ستتوقف، كمهرجان الشعر العماني الذي يفترض أن تقام دورته الجديدة نهاية هذا العام، إذ حتى لحظة كتابة هذه السطور لا شيء يشير إلى إمكانية إقامة المهرجان، وربما الأمر يمتد إلى فعاليات أخرى كمهرجان المسرح العماني الذي يفترض أن يقام نهاية العام المقبل، وكل هذا بسبب الأزمة المالية التي تمر بها البلاد.

هل لهذه الدرجة يمكن القول بأن هناك أزمة اقتصادية خانقة؟ أزمة أودت بحياة الملتقى الأدبي وربما إلى غير رجعة؟ أزمة خنقت كل الفعاليات الثقافية في البلاد؟

ثم لماذا دائما كلما عصفت بالبلاد أزمة اقتصاد تكون الضحية الثقافة والتربية والتعليم؟ لماذا هذه النظرة القاصرة إلى الفعل الثقافي؟ إنه ليس ترفا أيها القوم، ليس ترفا على الإطلاق.

في دول أخرى تبدو السياحة الثقافية مكونا مهما للاقتصاد، فتزدهر الأنشطة الثقافية بشتى أنواعها، والإبداع جزء أساسي منها، ولم يقولوا بأنها عبء وترف يمكن التغاضي عنه.

ولكن لأننا ننظر إلى الثقافة على أنها ترف وبلا أهمية في بلد يدعي أصحابه أنهم أصحاب تاريخ وإرث ثقافي؛ فإن مشاريع إقامة مجمعات وميادين ومتاحف للثقافة أمر يمكن التخلي عنه، ولذلك سيتم تأجيل مشروع المجمع الثقافي في مسقط، لتظل مسقط بلا مسرح حقيقي، وبلا مكتبة رسمية.

الجانب الآخر من كل هذه القضية هو أن أزمتنا الاقتصادية هذه المرة ستدخلنا إلى نفق مظلم جدا، فما دام أمكننا أن نفرط في التعليم والثقافة ونؤخرهما فهذا لا يعني سوى أن الأفق بات أكثر ضيقا والأجيال المقبلة سيتحتم عليها أن تفكر كثيرا في البقاء على أرض لا تمنحهم حق الثقافة والتعليم.

وآمل أن أكون مخطئا وسوداويا وأن يكون ما كتبت تعبيرا عن كابوس راودني في صيف حارق لم ينته بعد.